المصادر التقليدية التاريخية
مقاربة سوسيو-تاريخية
اليواقيت الثمينة للعربي المشرفي أنموذجا

الأستاذ العربي بوعمامة
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

تمهيد:

من المعلوم أن المصادر التقليدية التاريخية لبلدان المغرب لفتت منذ مدة اهتمام كثير من الباحثين في مختلف فروع العلوم الإنسانية، فظاهرة الأنساب من بين القضايا التي استأثرت بالانتباه واستقطبت سيلا من المؤرخين والباحثين الأنثروبولوجين وعلماء الاجتماع، إذا شكلت موضوعا خصبا للبحث والكتابة.

"فالحديث عن السير الذاتية والتراجم، قد أخذ على أيامنا أهمية بالغة على الصعيد الاختصاصات الأدبية والإنسانية بشكل عام" [1].

1) المصادروالمقاربات الجديدة:

استعمال المصادر والوثائق وكتب الأنساب وغيرها من شأنه أن يفتح المجال أمام الباحث للنظر في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والذهنية الخفية ومن شأنه أن يسهم في بلورة تصور داخلي تساؤلي للتحولات التي عرفها المجتمع الغرب الإسلامي." وتأتي كتب الأنساب على رأسه هذا النوع من

للمجتمع والتي أبقتها المصادر الإخبارية في الظل. أصبح هذا النوع المصدري يحظى باهتمام متزايد عن الباحثين مما يقدمه من معطيات تاريخية حول العلاقات الاجتماعية والواقع السوسيو- ديني"[2].

وان الاستفادة من هذه المادة استفادة كاملة واستنطاقها استنطاقا سليما لن يتأتيا إلا عن طريق توظيف بعض الأدوات الإجرائية" للعلوم الاجتماعية مختلفة، وخاصة السيمياء، واللسانيات وعلم الإناسة، ذلك أن هذه الأخيرة تتضمن لغة رمزية تحمل دلالات معينة" . لذا نبه بعض المشتغلين بهذه النصوص إلى وجوب النظر إلى مادتها "[3] على أساس التوفيق بين قراءة داخلية" تحاور الرموز والمضمون الثقافي، وبين قراءة خارجية توظفها في سياقها الحدثي" [4]. مع تسليمنا بنجاعة المزاوجة بين القراءتين، فإننا نؤكد أن تأليف كتب السير والتراجم يتم في سياق تاريخي محدد يتطلب بدوره توضيحا. فالاستفادة من مادتها تحتمل كذلك تجاوز الرواية إلى مضمونها وسياق إنتاج هذا المضمون، أي أن الأمر يتطلب قراءة المادة قراءة تاريخية، إذ هي وحدها الكفيلة بتحديد الواقع الذي انبثقت منه.

الواقع أن بعض الدراسات الحديثة التي سارت على هذا المنهج وحفرت في مضامينها ومعانيها الثاوية خلف رموزها قد رسمت مسارا جديدا في توظيف هذه المادة ، وجددت كثيرا من معطيات البحث الأنثروبولوجي التاريخي، بحيث لم يعد بإمكان كل مهتم بتاريخ الغرب الإسلامي أو مشتغل على هذه المادة تجاهل إسهامات تلك الدراسات. حول العلاقات الاجتماعية

والواقع السوسيو ديني ومجريات الحياة اليومية لشريحة اجتماعية ما فتئ دورها يكبر وتأثيرها يتقوى داخل النسيج الاجتماعي.

فالدارس لهذه الآثار مدعو إلى نوع من الارتحال داخل هذه التصانيف والامتناع عن إقحام قناعته الخاصة في محاولة لاستكشاف آليات التمثل التي استوعبت بها الأجيال السابقة المضامين الواردة في هذه الآثار.

إن كتب الأنساب هي الكتابات الأدبية التي طرحت السيرة " ونسب للصلحاء والأولياء والمرابطين، على هيئة سير ضبطت حياتهم اليومية وسلاسل أنسابهم وممارستهم الدينية والاجتماعية، وصورت الشخصية الدينية داخل النص كشريحة كاريزماتية تنتصر على مختلف القوة التي تمثل الخوف والشر، وهي في الغالب تتكون من اللصوص والأعراب والقراصنة والسلطة والطبيعة، فهي ذلك الخليط من الواقع والمتخيل والتاريخ والأسطورة والذي يتطلب الاستفادة منه عبر استعمال العلوم المختلفة للكشف عن مكنونه الفكري النابع من رحم مؤسسة الزاوية التي توظفه بدورها كأداة فعالة " لضمان استمراريتها عبر صيانة متجددة لرموز المشروعية الموروثة" [5].

2) التأسيس لتاريخ متعدد الإفادات:

دراسة هذه التصانيف وتشريحها هو بداية:" التأسيس لتاريخ الذهنيات على المستوى المغاربي باعتماد على تأليف تتداخل ضمنيا الشهادة التاريخية مع الترجمة الذاتية، فهذا الخطاب على سبيل المثال لا ينحصر في نطاق النسب بل نجده يخترق الكتابات الإخبارية والتراجم وكذا الأمر بالنسبة إلى الأدبيات

على اختصاصه لا يقتصر على جانب ما دون التطرق إلى الجانب الأخر، واختزال كافة أصناف أو ضروب الثقافة العالمة "la culture savante ". فقاعدة التبادل بين جملة هده المضامين أمر لا مجال اليوم لإنكاره" . لدراستها ينبغي وضع منهجية محكمة قصد استدرار مفهومها التاريخي والأنتروبولوجي على حد سواء.

فهم محتوى هذه المصنفات التقليدية. " إن لم ترفق مطلقا إلى مستوى مرموق على صعيد الصياغة والمنضمون فإن ذلك قد تصدره لتعكس لنا صورة عن القاعدة الذهنية والممارسات السلوكية" .[6].

3) مدونات الأنساب والسير، الأزمة والإصلاح السياسي والاجتماعي:

إذا كان هذا الترابط الوثيق بين الأزمة وظهور كتب الأنساب حقيقة لا يرقى إليها الشك فإن السؤال المحوري يظل هو كيف تعاملت هذه المصادر مع واقع الأزمة ،من خلال استعراض مظاهر الأزمة آنذاك والفشل السياسي بداية من عصر الموحدين أواخر القرن السادس وبداية السابع هجري والتناقض بين السلطة والمجتمع فإن هذه العوامل مجتمعة كانت وراء ظهور الكتابات السير والمناقب التي وظفت للإعراب عن جملة من المواقف وللتخفيف من حدة الصراع الاجتماعي بل تقديم مشروع إصلاحي، الذي يظهر نخبة الأولياء على أنها القادرة والمؤهلة كقيادة تقوم بدور طلائعي للخروج من الأزمة. "

أكد مالنيوفسكي أكثر من دوركايم، على وظائف الدين في تخفيف توترات والضغوط التي تقع على أفراد المجتمع كأفراد أو جماعة" [7].

لاشك أن مؤلفي المناقب والأنساب كانوا يشعرون بأثر ذلك على نفسية المجتمع، يسعون في نهج شتى الطرق لفرض قبولها على كل عناصر مجتمع لأن ذلك يعني تقبل مشروعهم الإصلاحي، لذلك دافعوا عنها بحرارة. ونجد مثلا في هذا النص أنه يطرح الأولياء فالكتلة السياسية لا تقهر ولا يعلا عليها وذات قدسية بتصوير يضفي نوع من الهالة والهيبة ،هذا ما حملته كتب الكرامات تبريرا لهذه النخبة حتى تجعل منهم قادة إصلاح دون غيرهم وعليه فإنها " تحمل خطابا سياسيا واضح المعاني فهي دعوى ضد الظلم والطغيان كما تستعمل الاستعارة ALLEGORIE وتضعها لردع وتوجيه السلطة وتوضح عدة طرق للانتصار عن الظلم إما بواسطة الأدعية والرؤية أو تسليط قوى خارقة على المستبد. كذلك تصوير هذه النخبة من الأولياء دون غيرها بترجمة وإعطائهم صور كأبطال خارقي العادة هذا يعزز ما ذكرناه في السابق أنها وليدة أزمة مجتمعية" [8] يتطلع المؤلفون من ورائها إلى التجديد بالتالي جاءت لتعكس أزمة معينة أو كان نتيجة لها.

4) النسب الشريف ومشروعية النفوذ الروحي والرمزية للشرعية الدينية:

النسب الشريف هي ميزة طغت على كل الأبعاد الأخرى " في حياة الاجتماعية والسياسية. فالأهمية التي احتلتها الشرف في حياة العامة " إذا كان الشرف يورث فإن الأمر لا ينطبق بالضرورة على التصوف" ، فالخلفاء و" [9]

الزاوية حماسه الصوفي الذي لا يكون في الغالب إلا نتيجة لشخصية واستجابة لنداء باطني" وعليه فإن الخلفاء سيستثمرون شرف نسبهم أكثر يستثمرون الإرث الصوفي، ويصبحون شيوخ بركة يزورونهم للتبرك بعد أن يصبح الشرف أساس هده المشروعية وسوف تكون المناقب مرآة هذا التحول، الأهم من ذلك ستكون أداة لتبريره بتوظيفها للإيحاء بالاستمرارية.

أصبح الشرف والنسب ركنا أساسيا من أركان مشروعية السياسة الدينية على السواء. إذا كان أثر الشرفاء على تطور التصوف بالمغرب قد أصبح أمر ملموسا من القرن الثالث عشر، فإن هيمنة الشرفاء على الحياة الصوفية بعد القرن الخامس عشر تعززت بشكل كبير" ، ذلك أن المنطقة احتضنت أكبر عدد من الشرفاء الأدارسة، ووصولهم إلى قمة السلطة السياسية، مما أعطى دفعا كبيرا للشرف والتصوف أن يمتزج في قالب واحد.

إن كتب السير للشرفاء لا توظف فقط في خدمة النسب، ذلك أنها تمثل في نفس الوقت تأكيدا لمشروعيتهم الصوفية. وهي مشروعية تورث كما يورث النسب، فالشيخ يصبح شيخا ليس فقط لأنه شريف يتوفر على البركة، ولكن كذلك (ورث السر) ممن سبقه بعد أن اختارته العناية الإلهية للخلافة. ويرتبط الجاه أيضا بمسألة الشرف وأصالة النسب، وظل معيارا للتصنيف الاجتماعي، وحسبنا أن بعض العائلات ورثت مكانتها الاجتماعية من نسبها وشرفها، واحتلت وضع طبقي متميزة عن طريق النسب والوراثة، وانتقلت الوجاهة من جيل إلى آخر تماما كالموروثات المادية والمعنوية الأخرى. والأسر الشريفة في العهد العثماني كانت معفاة من الضرائب، وتمنح لها ظهائر التوقير.

و دخول التصوف إلى أقطار عديدة ذات أصول غير عربية، على أن مفهوم آل البيت " قد وسعه الصوفية المتأخرون فجعلوه يشمل كافة أمة محمد (ص) سواء، وأطلقوا عليه مصطلح(أهل الله)" [10].

5) مخطوط اليواقيت الثمينة منهجية التأليف ودوافعها:

يطرح المشرفي دوافع التأليف في مقدمته " وبعد لما رأيت حب آل النبي من أعظم الوسائل عند الله تعالى ومن أكبر الخصال، حركني باعث الحب أن أجمع تأليفا يسمهم بالتعريف ويبني عن عُلى مقامهم بالتشريف"

منهجية الكتابة: اعتماده على مصادر عديدة منها ما هو مذكور مثل كتاب سمط الآلي وغيرها وعمل على الاختصار بقوله" واعتمدت في ذلك على كتب أولي الشأن واختصرت منهم ما تحقق لي يقين" [11].

إن دراسة وصفية للكتاب تتبع أجزاء الكتاب من مقدمة ومتن يتضح انه مقاربة جينيالوجية لنسل وشجرة ال البيت خاصة الفرع الحسني بالغرب الإسلامي ويشتمل الكتاب كما جاء في المقدمة" [12] وقسمته على أقسام أربعة بزيادة مقدمة وخاتمة، القسم الأول في نسب النبي والخلفاء الأربعة، القسم الثاني في التعريف بريحانة الرسول مولانا الحسن ابن فاطمة البتول، الذي هو غاية المنى والسول، القسم الثالث في التعريف ببعض ذرية الريحانتين وهما مولانا الحسن ومولانا الحسين رضي الله عنهما وأمهما وأبيهما. وصلى الله على جدهما على وجه الاختصار والاقتصار. القسم الرابع في التعريف بالقطب الواضح، والكوكب النير اللائح، سيدي محمد بن علي المجاجي، وفي

الأقسام استغنينا بها عن تفصيل الكتاب وتبويبه. واستعنا بالله على جمل تراكيبه في ترتيبه، إنه ولي ذلك والقادر عليه سبحانه)

6)الكتابة ومحاولة إثبات الذات:

بعد الاقتراب من محتوى الكتاب لابد من الوقوف على المؤلف والمدارس العلمية التي نهل منها فبسب الاستعمار الذي عرفته الجزائر اضطرت أسرة المشارفة إلى الانتقال إلى المغرب الأقصى والاستقرار في فاس ويؤكد في أحد مخطوطاته" ففاجأنا خروج الإفرنس دمّره الله للثغر الجزائري، فلم يتم لنا المراد في قراءة التفسير ومتون الصحاح، فرجعت لغريس ظافرا بالنحويات والفقيهات والحمد لله، وانتصبت في حياة والدي للتدريس وقرت بي عينه" 13وبعد انهزام الأمير عبد القادر في معركة عين طاقين سنة 1843م، لم تسمح له بالمكوث في الجزائر نظرا لتظافر عدة عوامل سبق ذكرها. وهو ما جعله يشدّ الرحال نحو المغرب سنة 1844م؛ لكن ضغط فقهاء فاس ومحاولة التمكين وفرض الذات في المجتمع الفاسي هذه من أهم العوامل التي ميزت حياة المشرفي ويصرح به في كتابه " كل هذا، أنني معدود من حزب الغرباء، وإن كنت عندهم من جملة الأدباء، وفي الطبقة الثانية من طبقات المدرسين، ومحروم من أحباس المحبسين، وهذا شأن من لفظته الأقدار من أوطانه، وانقلبت محاسني مساوئا، وأصدقائي أعاديا"[14].

ومما سبق فان وضع المؤلف في اطاره الزمني واستدرار مخزونه التاريخي والسوسولوجي يفتح المجال لتعدد الاختصاصات والاستفادة من كل